عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

الثورة العربية الكبرى: المقدمات الموضوعية والذاتية

دكتور/ محمد علي الروسان

أستاذ مساعد/ جامعة البلقاء التطبيقية – كلية اربد الجامعية- الاردن

طارق تركي العماري

مدرس/ جامعة البلقاء التطبيقية – كلية اربد الجامعية- الاردن

الثقافة والتنمية العدد التاسع والعشرون أبريل ٢٠٠٩ م

obeikandl.com

obeikandl.com

الثورة العربية الكبرى: المقدمات الموضوعية والذاتية

د. محمد علي الروسان[1]
طارق تركي العماري[2]

مقدمة

دخل المشرق العربي تحت الحكم العثماني منذ مطلع القرن السادس الميلادي لتصبح الخلافة الإسلامية من غير العنصر العربي بانتقالها إلى آل عثمان، ولغتها الرسمية اللغة التركية بينما الأستانة(استانبول) عاصمة الإمبراطورية الإسلامية الواقعة خارج الوطن العربي لأول مرة.

فالخليفة كان هو رأس السلطة السياسية يحكم باسمه ولاة محليون معينون لحكم وإدارة ولايات الدولة ومن بينها الولايات العربية، إذ تميزت التركيبة السكانية بالتنوع القومي والعرقي والديني والطائفي، لكن السمة الغالبة لإدارة الدولة المركزية ومراكزها الوظيفية العليا سيادة العنصر التركي.

وقد استمر الحكم العثماني للبلاد العربية منذ القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن العشرين لتظهر في النهاية متغيرات جديدة اتسمت بتدني وسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية المحلية والدولية والاجتماعية- القومية، لتتفاعل معا بصورة تساندية شكلت بالنتيجة مقدمات ذاتية وموضوعية لقيام الثورة.

بالطبع كانت هنالك تراكمات صنعتها سياسات الحكم وإدارته وطموحات ومبادرات داخلية لقادة الفكر والحكم المحلي في مختلف الولايات العربية تقاطعت مع أطماع ومصالح القوى الدولية الفاعلة حينذاك، نتج عنها انقسام الموقف العربي بين مؤيد للدولة ووحدتها وبين معارض لها خاصة باتخاذ القرار بدخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد الحلف الأنجلو- فرنسي.

---

1 أستاذ مساعد/ جامعة البلقاء التطبيقية – كلية اربد الجامعية
2 مدرس / جامعة البلقاء التطبيقية – كلية اربد الجامعية

وهذا ما وفر فرصة مواتية لبروز حالة من التقاطع في السياسة والمصالح باستغلال بريطانيا لنمو الشعور القومي لدى العرب والنجاح في النهاية بحشد الجهود والقدرات لعقد تحالف بريطاني- عربي يحقق الطموح العربي بالانفصال والاستقلال تخلصا من تردي حالة الولايات العربية على مختلف المستويات، وفي الوقت ذاته يتخلص التحالف الأنجلو- فرنسي من إمبراطورية إسلامية ويتقاسم مناطق النفوذ الغنية بمواردها وموقعها الجغرافي الاستراتيجي.

في هذا السياق يرى الدكتور فيليب حتي"أن دولة يوضع نظامها لغرض حربي دون الالتفات لمصلحة الشعب وتتسع رقعتها لتمتد إلى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة دون أن ترتبط بوسائل منتظمة للنقل، فيها خليط من السكان غير المتجانسين بل مختلفون شيعا وأحزابا؛ دينية وعنصرية.. إن دولة مثل هذه لتحمل في طيات كيانها بذور الانحلال والفساد". (شلبي، ١٩٦٧: ٥١٨).

واقع الدولة العثمانية

لاشك أن شروطا ذاتية وموضوعية شكلت بمجملها مقدمات سياسية واقتصادية وسكانية كانت كفيلة بإنضاج حالة التمرد باتجاه تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية منها ما ارتبط بواقع الدولة، طبقة حكم وإدارة وسياسة محلية وخارجية ومنها ما ارتبط بالولايات العربية نخب فكرية وسياسية محلية وظروف انطوى عليها واقعها الفعلي.

فعلى مستوى الحكم والإدارة العثمانية **تركزت السلطة بيد السلاطين بصورة حكم مطلق بيد طبقة الحكم، التي مارست الفساد الإداري وحياة البذخ والترف وحالة من التنافس والصراع السياسي الداخلي الذي عكس نفسه في النهاية على واقع الدولة وأوضاعها ومؤسساتها، مما مهد إلى زعزعة قاعدة الحكم الشرعي وأسسه السياسية والدينية والقومية، وقد تمثلت طبقة الحكم بالإقطاعيين الأتراك الذين فرضت سيطرتهم بالعنف وعبر مؤسسة الجيش العثماني تحت قيادة السلطان نفسه الذي تمتع بسلطة**

عسكرية ومدنية ودينية مطلقة حكمت بموجبها الإقطاعيات الحربية التي تعرف بالسنجق أو اللواء(لوتسكي: ٢٤).

وقد تشكلت مؤسسة الجيش العثماني من ثلاثة فئات: الجنود الإقطاعيون والانكشارية والجند الخاص أو المرتزقة، عانت في فترات مختلفة من الضعف بافتقاد الروح والانضباط العسكري والتعدي على السكان والدخول في المنازعات والصراعات السياسية بل وكثيرا ما شاركت فئات من الجند في الثورات الداخلية التي كان يحرض عليها كبار الموظفين والولاة والإقطاعيين للحصول على المكاسب والامتيازات الخاصة. (طلاس،١٩٧٨:٦٥)

وتصف صحيفة القبلة من اعتلى على سدة الحكم بأنهم" فتيان غير مجربين وشبان غير مدربين وأنهم وثبوا من الوظائف الحقيرة إلى المناصب الكبيرة، سجنوا السلطان في قصره ففقد الشرعية وتمادوا أكثر فدعوا إلى العصبية التركية"(أبو دية، ١٩٩١: ٣٨).

أما علاقات الدولة الخارجية فقد ارتبطت بحروبها إذ خاضت الدولة العثمانية حروبا عدة بدافع الفتح والتوسع والدفاع عن حدودها وهو ما استنزف القدرات الاقتصادية والبشرية وأدى إلى انهاك الدولة وخلق شروط الضعف والتفكك والتمرد الداخلي في الولايات التابعة لها، وهذه الحروب بما تطلبته من إمكانات وقدرات انعكست على إضعاف الوضع الاقتصادي وتخلفه خاصة وقد تميزت الاقتصاديات المحلية بالنظام الإقطاعي وتخلف شؤون شعوب الولايات من الناحية الاقتصادية في الزراعة والتجارة والصناعة، بل وفوق ذلك استنزاف دخول الفلاحين المتواضعة بجباية الضرائب من شعوب ولايات الإمبراطورية غير المتجانسة(لوتسكي: ٣١).

فالتجانس السكاني بحكم الاتساع الجغرافي للدولة الذي تشكل سكانيا من مجموعات عرقية ودينية وعرقية مختلفة، جعل من عملية الاندماج السكاني مسألة بالغة التعقيد والصعوبة وبالنتيجة استحالة نجاح عملية الاحتواء والمرتبطة بالطبع بواقع هذا

الاتساع الجغرافي الذي تطلب خطوط مواصلات ملائمة تتماشى وضرورات الهيمنة والسيطرة العسكرية والسياسية للدولة(Hourani, 2002: 143).

وكان لهذا الواقع الموضوعي دوره الفاعل في نمو المشاعر القومية للمجموعات السكانية الخاضعة للدولة.في صورة يقظة قومية نظرا لعامل اللاتجانس السكاني من جهة وما صاحبه من سياسات سلبية من جهة أخرى ارتبطت بممارسات العنصر التركي القابض على السلطة السياسية العليا، علاوة على تأثير نشوء الفكرة القومية في الدول الأوروبية على القوميات الخاضعة للدولة العثمانية؛ فالأفكار الغربية التي حملت مبادئ المساواة والحرية والعدالة بفعل الثورة الفرنسية بإنهاء عصر ملوك أوروبا الذين كانوا يحكمون باسم الحق الإلهي، ساهمت في نشوء الحركة القومية العربية (طلاس، ١٩٧٨: ٥٢)

وفي مقابل ذلك انتشار الفكرة القومية لدى الأتراك أنفسهم بالدعوة إلى القومية الطورانية التي نادت بسيادة العنصر التركي على بقية القوميات الأخرى في الدولة العثمانية والتي توجت بتولي حزب الاتحاد والترقي التركي حكم الدولة العثمانية منذ عام ١٩٠٨.

المقدمات القومية

تم الإعلان عن الدستور العثماني في ٢٣ يوليو ١٩٠٨، وبعد إعلانه انتخب العرب نوابهم في البرلمان التركي ومثلهم ٧٠ نائبا من أصل ٢٧٣ نائبا في البرلمان. إلا أن العنصرية التركية كانت الثغرة الأولى في بناء الدولة الجديدة، بالاعتماد في الوظائف العليا على العنصر التركي وإقصاء العنصر العربي(سعيد: ١١).

بدأت الدعوة إلى العرقية الطورانية بتسلم جمعية الاتحاد والترقي السلطة الفعلية في تركيا متخذه هذه الحركة اسمها نسبة إلى طوران أورمك الترك والمغول القديمة و تضمنت في جوهرها الدعوة لإقامة دولة طورا نية- تركية لا عثمانية بالاستناد إلى ثلاثة خطوط:

- **تخليص التراث التركي الفكري من المؤثرات الفارسية والعربية.**
- خلق صلة قوية بين أتراك الدولة العثمانية والأتراك خارجها.
- العمل على تفوق العنصر التركي وسيادته في الدولة العثمانية، وتنمية الإحساس التركي بالاستغلاء على العربي، وتسويد اللغة التركية والتعصب لها (قلعجي،١٩٩٤: ٦٨).

وقد ترجمت هذه المسارات القومية على أساس محاربة اللغة والآداب العربية ونشر الكتب والأناشيد القومية التركية وتدريس التاريخ الطوراني القديم في اتجاه تعميق الشعور بأن الأمة التركية هي أعظم أمة في الدنيا.

بهذا تميزت الفترة التي تسلم بها الاتحاديون السلطة بالتوجهات القومية التركية- الطورانية، بالتوازي مع ظهور الدولة القومية الأوروبية، وبتأثيرها على الاتحاديين واتجاههم نحو طورانيتهم بصورة دفعت إلى تدمير علاقتهم السابقة بالشعوب الخاضعة لهم وخاصة الشعب العربي بتحول العلاقة من الدينية إلى القومية(التركية- العربية)المنبثقة من العرقية الطورانية،وهو ما انعكس على التركيب القومي للدولة العثمانية بإحلال الموظفين الأتراك محل الموظفين العرب وإعادة بناء الدولة على أساس سيادة العنصر التركي وتفوق العرقية الطورانية وبالنتيجة اعتماد سياسة التتريك والتعصب للغة التركية وإحلالها محل العربية، الأمر الذي دفع الفكر السياسي العربي نحو التصدي لمحاولة التذويب للشخصية القومية العربية من خلال حملات التوعية الجماهيرية العربية لتنمية المشاعر والتوجه القومي(أبو داهود، ١٩٩٢: ٢٧- ٢٨).

وفي فترة تالية من الشد والجذب التركي- العربي دفعت سياسات جمال باشا المعادية للعرب إلى صعود الوعي القومي العربي وتنامي الدعوات للمطالبة بالحقوق العربية، حيث عاود الاتحاديون يمثلهم جمال باشا العمل بموجب نهج الإقصاء ومقاومة الحركة العربية والاستمرار في سياسة الإبعاد والبطش والاعتقال والإعدام(سعيد: ٦٦)

وعليه خلقت تلك المقدمات اتجاهات قومية عربية كانت بمثابة رد على الدعوة القومية الطورانية مليئة من الوعي بأهمية ودور العرب في الحضارة الإسلامية والحيلولة دون تهميشهم أو اعتبارهم مجرد عنصر قومي طارئ.

فالقومية العربية واقع موضوعي ممتد عبر التاريخ واجه تحديات على مدى صيرورته التاريخية ، ليأتي الإسلام في مرحلة تالية موحدا للعنصر العربي وقائدا لرسالته الإسلامية التي حملها رسالة للعالم، فدخلت شعوب عديدة من أصول عرقية ودينية الدمج بعضها داخل إطار الهوية العربية الإسلامية وحافظ بعضها الآخر على هويته القومية مضيفا لها هوية دينية إسلامية، هذا على الرغم من أن التاريخ العربي الإسلامي شهد علاقات تعايش تارة وتنافس وصراع تارة أخرى تداخلت مع ظروف موضوعية وذاتية تاريخية أثرت بصورة وأخرى على اتجاهات وصيرورة تطور الفكرة القومية العربية(Watenbaugh, 2002: 65).

ضمن هذا السياق تميزت علاقة العرب بالعثمانيين والدولة التي اعتبروها امتداداً للخلافة الإسلامية، تعايشوا معها حينا ودخلوا في صراع معها حينا آخر لتنتهي تلك العلاقة عند واقع ذاتي وموضوعي لكل من طبقة الحكم المركزي وواقع وطموحات الزعامات العربية المحلية بالاستقلال الذاتي بداية ، ثم ليتطور هذا الطموح بالاستقلال والانفصال التام عن جسم الدولة. ولم تكن القوى الدولية حينذاك ببعيدة عن ذلك، إذ ساهمت في تغذيتها عبر نخب وقادة ومفكرين سياسيين محليين.

فمنذ عام ١٩٠٦ بدأ محمد رشيد رضا بانتقاد سياسة السلطان الفردية في الدولة ودعا إلى جمع السلطان لأهل الحل والعقد لممارسة مبدأ الشورى في الدولة. لكنه لم يدع إلى خلافة عربية أو قيام دولة عربية منفصلة عن الدولة العثمانية، وداعيا المسلمين عامة لتقدير دور العرب وإسهاماتهم في الحضارة الإسلامية وأهمية اللغة العربية(الشوابكة، ١٩٨٩: ١٨٥).

كما وجمع عبد الرحمن الكواكبي بين العروبة والدين في دعوته الإصلاحية داعيا إلى وحدة عربية إسلامية(طحان، ١٩٩٨: ٥٩).

ولما أعلن الاتحاديون، بعد إصدار الدستور العثماني الجديد عام ١٩٠٨، عن تحقيق المساواة لجميع رعايا الدولة وتقوية الدولة امام الأطماع الأجنبية، رحب رجال الفكر والأدب والصحافة ودعاة الإصلاح العرب بتطبيق الدستور(ظاهر، ١٩٩٠: ٣٤٧).

فبادر عدد منهم إلى تأسيس جمعيات عثمانية بغرض إقامة علاقات متوازنة بين العرب والاتحاديين وعدم التمييز على أساس الجنس والمذهب وتوثيق الرابطة العثمانية وإعلاء شأن الأمة العربية ومن هذه الجمعيات؛ جمعية الإخاء العربي العثماني التي أسسها الطلاب العرب في الآستانة في ٢ أيلول ١٩٠٨ والمنتدى الأدبي بهدف بعث العروبة والمطالبة بحقوق العرب ضمن الرابطة العثمانية دون المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية(قدري، ١٩٥٦: ٨).

إلا أن تطورات وعوامل موضوعية مرتبطة بطبيعة مسار العلاقة التركية-العربية اتجهت بالعمل العربي نحو نمو الوعي والشعور القومي في مقابل تطور المواقف التركية تجاه العرب شارك في تنميته كتاب وشعراء وقادة محليون.

ولعل جريدة المنار كانت أول صحيفة عربية حملت لواء الهجوم على الأتراك ككل، وقد أسهمت تلك الحملة في إيقاظ الشعور العربي القومي(الصايغ، ١٩٦٦: ٣٨).

ثم ليتخذ العمل صورته المنظمة بتأسيس جمعيات في الآستانة والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد لتعزيز شأن العرب والمطالبة بحقوقهم ومساواتهم بالأتراك، وهذا ما ساعد على تنمية الشعور القومي. وكان أن بدأ الوعي القومي بفعل ومبادرة النخب العربية التي تلقت تعليمها في أوروبا وبلاد المهجر آنذاك والتي بدأت بتأسيس الجمعيات العربية، وشارك في ذلك الشعراء والصحفيون والكتاب.

فقد عملت مجموعة من العرب الدارسين في باريس على تشكيل جمعية"العربية الفتاة" في ١٤ تشرين الثاني ،١٩٠٩وهدفها النهوض بالأمة العربية وبعث الحس القومي

وايقاضه ، ثم ليجري تعديل هدفها في مرحلة تالية بالوقوف أمام الهيمنة العثمانية والعمل على تحقيق الاستقلال (دروزة، ١٩٧١: ٤٨٩).

كذلك انتشرت الفكرة العربية في أوساط الدارسين في الكليات والمعاهد التبشيرية، إذ أسس عدد من المسيحيين الدارسين في الكلية البروتستانتية السورية في بيروت جمعية سرية طالبت بالاستقلال لسوريا والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في البلاد العربية وإلغاء القيود على حرية التعبير ونشر التعليم وأن تكون الخدمة العسكرية للعرب ضمن حدود بلادهم(عوض، ١٩٨٣: ٤٧).

ودعا نجيب عازوري إلى العروبة واللغة العربية وفصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية بقيام اتحاد كونفدرالي يضم البلاد العربية والفصل بين السلطة السياسية والسلطة الدينية (قدوره،١٩٨٤: ٢٢٠).

وفي أواخر عام ١٩٠٩ تأسست الجمعية القحطانية التي تنكرت بوضوح للرابطة العثمانية واعتبرت العرب أمة قائمة بذاتها وسعت إلى استقلال عربي والدفاع عن مصالح العرب(وأنطونيوس، ١٩٨٠: ١٨٦).

كما وأسس أفراد الجالية السورية في مصر حزب اللامركزية العثمانية في عام ١٩١٢ بهدف المطالبة بمنح الاستقلال الذاتي للأقاليم العربية في آسيا وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية وأن يخدم الجنود العرب في وقت السلم في ولاياتهم وأن تستشار السلطات المحلية عند تعيين الولاة العثمانيين(الريماوي، ١٩٨٤: ١٧٢).

وفي القاهرة تشكل "حزب اللامركزية الإدارية العثماني" الذي جاء استجابة لبرنامج"حزب الحرية والائتلاف العثماني" وطرح هذا الحزب شعار لا مركزية الدولة العثمانية، وطالب بالاستقلال الذاتي للقوميات داخل الدولة العثمانية(أبو داهود، المرجع السابق: ٣١).

وفي ١٧ حزيران ١٩١٣ عقد مؤتمر باريس في مقر الجمعية الجغرافية الفرنسية انتهى إلى إفراز تيارين رئيسيين: التيار الأول اتسم بنعرة قومية بارزة. والتيار الثاني

اتسم بروح المحاورة والتعقل لا روح الفكر الثوري الذي يسعى للخروج على السلطة العثمانية. وفي مقابل ذلك وجدت أصوات عربية مناوئة للمؤتمر، منها"حزب الإصلاح" الذي عمد إلى اتهام المؤتمرين بالارتباط بالغرب وأنهم متآمرون على العرب وعلى الدولة والخلافة الإسلامية، كما وأرسلت بعض القيادات العربية المحلية في دمشق بإرسال برقيات التنديد بالمؤتمر متهمة إياهم بالارتباط بالغرب والعمل على تدمير الدولة وتخريب الخلافة الدينية(طلاس، المرجع السابق: ٦١).

ولم تقتصر الأنشطة الفكرية والسياسية على النخب الفكرية والسياسية، إذ انتقلت إلى الفئات العسكرية العربية في الجيش العثماني، فأسس الضابط عزيز علي المصري تنظيم عسكري سماه "جمعية العهد" في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٣وعمل على التنسيق مع القيادة السياسية لجمعية العربية الفتاة. وبذا تحول الفكر العربي إلى فكر ثوري انقلابي يستقرأ الواقع العربي ويسعى لمحاولة تغييره(عضو جمعية سرية عربية، ١٩٩١: ٣٢).

وهكذا انتشرت الجمعيات والتنظيمات الحزبية في بيروت وبغداد والبصرة، متوحدة ومتناغمة على فكرة وجوب تحرير الإنسان العربي وبناء دولته العربية الواحدة. وظهرت أنشطتها على سطح الأحداث عبر قنوات تنظيمية وقيادات سياسية وعسكرية لتحقيق الأهداف العربية.

أما الموقف التركي تجاه الجمعيات العربية فقد **تميز هو الآخر بتيارين؛ موقف ينسجم مع المطالب الإصلاحية العربية وموقف آخر يدعو إلى مقاومتها.**

لذلك فقد تم الاتصال والتفاوض مع المؤتمرين؛ من خلال وفد برئاسة مدحت شكري الأمين العام لجمعية الاتحاد والترقي الذي سافر إلى باريس فأجرى حوارا حول مجمل القضايا ليتفق الطرفان على إتمام المباحثات في استانبول ولتسفر المفاوضات عن توقيع وثيقة رسمية أقر فيها الأتراك بشرعية المطالب العربية والتي تتلخص بجعل التدريس باللغة العربية، وللعرب حق الاشتراك في المجالس والهيئات واللجان الرئيسية في الحكومة وتعيين خمسة ولاة عرب وعشرة متصرفين. وقد اشترطت الحكومة العثمانية

أن يبقى هذا الاتفاق طي الكتمان، لكن رئيس حزب اللامركزية نشر نص الاتفاق في جريدة المقطم القاهرية، مما دفع الحكومة العثمانية إلى تكذيب الخبر والقول بأن لا صحة لوجود الاتفاقية، وأن الحكومة قد قررت إجراء إصلاحات من تلقاء نفسها وليس بتأثير دوافع أخرى، فقامت الحكومة بإجراء بعض الإصلاحات التي وافق عليها البعض من العرب ورفضها البعض الآخر حيث رأى فيها التيار الوسطي أو التوافقي جوا من التقارب والحوار والتفاهم يحقق التوازن والانسجام بين العرب والأتراك وأنها كفيله بصد خطر استعماري آخر يهدد البلاد من الغرب، بينما التيار الرافض(الثوري) ممثلا بجمعية العربية الفتاة، فقد اعتبر الإصلاحات أمورا هامشية على حساب القضية المركزية وأن قبولها يمثل خروجا عن قرارات مؤتمر باريس. لكن تيارا ثالثا كان إلى جانب الأستانة ورافضا إلا أن يكون العرب جزءا من الدولة والخلافة العثمانية على أساس الرابطة الدينية(أبو داهود، المرجع السابق: ٣٦- ٣٧).

إلا أن الموقف التركي المعارض للأخذ بمطالب الجمعيات كان الأكثر حسما حيث اتخذ مظهره بداية باتخاذ الحكومة التركية قرارا في ٢٤ يناير ١٩١٤ بإبعاد ٤٩٠ ضابطا عربيا إلى الأناضول بعيدا عن الآستانة ينتمي منهم ٣١٥ إلى الجمعيات العربية كأسلوب لإبعاد العرب وإقصائهم والاستغناء عن خدماتهم والإسراع بسياسة التتريك، وفي الوقت نفسه العمل على استمالة بعض العناصر العربية القريبة من حكومة الآستانة بتقوية نفوذ أندية جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والإكثار من المنتسبين العرب إليها. كما وتم التهديد باكتساح سوريا عسكريا والقضاء على كل حركة عربية، كذلك تهديد الاتحاديين للشريف حسين في الحجاز بالقضاء على نفوذه بل واغتياله، وفي فبراير ١٩١٤ وصل وهيب بك إلى مكة حاملا تعليمات من الاتحاديين بإلغاء كل ما للحجاز من امتيازات وتطبيق قانون الولايات الجديد ومد سكة حديد تربط مكة بالمدينة المنورة، كذلك أرسلوا إلى البصرة قوة عسكرية للقضاء على الحركة الإصلاحية العربية في العراق

وعينوا ولاة على الولايات العربية لمحاربة الحركات العربية ومقاومتها بشتى الوسائل(سعيد، المرجع السابق: ٥٢، ٦٠).

بذلك نضجت شروط موضوعية وذاتية لدى طرفي العلاقة القومية ممثلة بالعنصر التركي والعنصر العربي، هذا علاوة على مصالح وأطماع القوى الأوروبية في ذلك الوقت الراهن، لتتشكل حالة من التقاطع في المصالح والسياسة استثمرها كلا الطرفين.

الاتصالات العربية- البريطانية: التقاطع في المصالح والسياسة

كانت القوى الغربية قد ناصرت الدولة العثمانية في مرحلة تاريخية معينة ضد مشروع محمد علي وكأنها تنصر الإسلام على العروبة، ولما زال هذا الخطر شجعت المدارس التبشيرية على نشر الفكرة العربية المستبعدة لفكرة المزج بين العروبة والإسلام(عمارة ١٩٨١: ١٦٥).

كما وجد الانجليز في الشعور العربي القومي المتيقظ منفذا لتحقيق مصالحهم في المنطقة فأخذوا في تغذية الشعور القومي والنقمة الشعبية ضد الأتراك؛ فلبريطانيا مصالح في البلاد العربية نظر الانجليز عبرها إلى القضية العربية والى دعاة الثورة العربية على الأتراك من بينهم العائلة الهاشمية في مكة(الصايغ، المرجع السابق: ٣٧).

بذلك بدأت الأطماع الأوروبية الاستعمارية باقتسام النفوذ في مناطق الدولة العثمانية التي تعززت بدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا(دول المحور) ضد دول الحلفاء(فرنسا وانجلترا).

على هذا الأساس بدأت الاتصالات بين بريطانيا وبين الحركة العربية في مصر بواسطة الكولونيل جلبرت كلايتون معتمد السودان في القاهرة ورئيس المخابرات السياسية والعسكرية والمستر رونالد ستورس المستشار الشرقي لدار الاعتماد في مصر. فبدأ أول اتصال بريطاني في مصر مع حزب اللامركزية، وأكد لهم كلايتون أنه ومن اجل الاستقلال لا بد من وجود حركة ثورية عربية تشتعل في الوطن العربي ضد العثمانيين وبدعم من بريطانيا وحال انتهاء الحرب ستقوم بريطانيا بالعمل على إنشاء تلك

الدولة ودعمها. وقد كتب اللامركزيون بيانهم الذي بعثوه أولا للحكومة البريطانية التي أعادت صياغته بصورة رفضها اللامركزيون وامتنعوا عن العمل مع البريطانيين. كما واتصل كلايتون مع الضابط العربي عزيز المصري لإقامة حركة ثورية في العراق، وإعطاءه ألفي جنيه، وإذا ما تمكن من ذلك فسيزيد دعمه. وعقدت بريطانيا اتفاقيات مع الإدريسي أمير عسير في ٣٠ نيسان ١٩١٥ ومع ابن سعود أمير نجد في ٢٦ كانون أول ١٩١٥(أبو داهود، المرجع السابق: ٩٦- ٩٨).

ولعب لورنس دوره أيضا في تشبيك وتمتين العلاقات العربية البريطانية، فهو كان قد سافر إلى الشرق في ١٨ يونيو ١٩٠٩، ثم عينه السير جليبرت كلايتون في قسم المخابرات السرية وبدأ عمله مستغلا علاقته بالعرب لإيهامهم أنه يريد مساعدتهم لمواجهة الغطرسة التركية، خاصة وقد تميز بإجادته اللغة العربية ومعرفته بثقافتهم (وكيبيديا/ الموسوعة الحرة).

وهناك من يرى تقاطع المصالح أيضا بدخول اليهود على الخط؛ عندما قرر الصهاينة المجتمعون في بازل بسويسرا إقامة دولتهم في فلسطين، ووجدوا أن العقبة الأولى هي الدولة العثمانية، فبدأ التحالف الأوروبي- اليهودي العمل على إسقاط الخلافة، فكانت البداية إقصاء نفوذ السلطان عبد الحميد بتولي حزب الاتحاد والترقي السلطة، كذلك البحث عن شخصية لها ثقلها في العالم الإسلامي، فوجدوها في الشريف حسين الذي عين أميرا على مكة المعين بضغط من حزب الاتحاد وعدم رضا من السلطان الذي قال: "لقد خرجت الحجاز من يدنا واستقل العرب وتشتت ملك آل عثمان بتعيين الشريف حسين أميرا على مكة، ويأليته يقنع بإمارة مكة المكرمة وباستقلال العرب فقط ولكنه سيعمل بدهائه إلى أن ينال من الخلافة"(**مفكرة الإسلام/ / الخديعة الكبرى**)

شرافة مكة والتوجه القومي

شهدت شرافة مكة صراعا خلال حكم العثمانيين بين الأسر العربية: بني عبد المطلب وبني زيد وبني نمي، بل وبين بني نمي أنفسهم، وإلى أن عين الشريف حسين بن

علي ابن محمد عبد المعين، وبدأ عمله بوضع حد لتدخل الاتحاديين في شؤون مكة ليظهر الصراع على السطح بين الحكومة المركزية والحكم المحلي(سعيد، المرجع السابق: ١٠٨).

فبعد أن تولي الشرافة عبد المطلب من آل زيد سافر الحسين إلى الآستانة برفقة ابن عمه علي بن عبد الله لتحريض السلطان على عزل عبد المطلب، وحدثوا السلطان عن صداقة بين عبد المطلب ومدحت باشا الذي كان منفيا في الحجاز، وأن عبد المطلب رفض أمر السلطان بقتل مدحت باشا غدرا، ونجح الوفد الهاشمي في إقناع السلطان عبد الحميد بعزل عبد المطلب وتعيين عون بن محمد المعروف بعون الرفيق سنة ١٨٨٢(الفواز ، ١٩٩٧: ٥١).

وفي عام ١٨٨٢ عين الشريف"عون رفيق"عم الشريف حسين أميرا على مكة، وكان توجهه الديني وهابيا، حيث قام بهدم قبور الأولياء والمقامات، ومارس سياسة لم ترق للشريف حسين الذي أعلن رفضه لسياسة الشريف"عون رفيق"، فهو لم يحبذ أن تكون الشرافة لعمه عون لأنه كان يريدها لنفسه، لذلك عمد الشريف"عون رفيق" إلى نفي الشريف حسين عام ١٨٩٣وهو حينذاك كان في الأربعين من عمره، واستمر منفيا لمدة ١٦ عاما، ومع ذلك تولى المناصب وعين عضوا في مجلس الشورى وأصبح مقربا من السلطان (الخطيب، ٢٠٠٧: ٥٣).

استمرت إمارة الشريف عون الرفيق حتى وفاته عام ١٩٠٥ فانتقلت الإمارة إلى أخيه الشريف علي بن عبد الله بن محمد، لكن تم عزله بعد تمهله في تأييد الدستور عام ١٩٠٨ (Haidar, 1944: 80).

وكان أن أشار بعض أعضاء الحكومة على السلطان عبد الحميد بتعيين الشريف حسين أميرا على مكة بعد وفاة الشريف عون الرفيق، إلا أن السلطان رفض ذلك بقوله" إني راض بتعيينه أميرا على مكة إذ اكتفى بذلك فقط، بل إني أعتقد أنه لن يكتفي بالإمارة فحسب بل يطمح إلى أكثر من ذلك". وقد عين الشريف عبد الاله بن محمد بن عون بعد

عزل الشريف علي، لكنه توفي بعد ثلاثة أيام من تعيينه، فقدم الحسين عريضة إلى السلطان يطلب منه تعيينه أميرا على مكة(Ochsenwald, 1985: 214).

وفي ١ تشرين أول ١٩٠٨ صدرت الإرادة السلطانية بتعيين الشريف حسين بن علي أميرا على مكة، وتسلم منصبه في ٣ كانون الأول ١٩٠٨. ويذكر الأمير عبد الله في مذكراته(ابن الحسين عبدالله: ٤٨) أن هذا التعيين قد أغضب الاتحاديين على والده وكان سببا في بداية الخلاف بينهما. وهكذا تضاربت الآراء حول موقف كل من السلطان عبد الحميد الثاني والاتحاديين من تعيين الحسين أميرا على مكة.

اتجه الشريف لتعزيز سلطته ورسم سياسته بعيدا عن الاتحاديين وسحب البساط من تحت إقدام الولاة العثمانيين، كذلك بسط نفوذه وسلطته على أمراء الجزيرة، ولما رفض السعوديين ذلك بامتناعهم عن دفع الضرائب للخزينة وجه الشريف حسين حملة عسكرية ضدهم عام ١٩١٠ مما اضطرهم إلى الاعتراف بتبعيتهم لإمارة مكة. ولما واجهته ثورة الإمام يحي في اليمن سنة ١٩١٠ دفع باتجاه تفاوض الدولة العثمانية مع الإمام باسم الرابطة الإسلامية حيث اتفق الطرفان سنة ١٩١١|. كما وقاد حملة عسكرية ضد الإدريسي أمير عسير والذي رفض التفاوض مع الدولة ما اضطر الشريف إلى محاصرة أبها مدة شهرين وهروب الإدريسي إلى جبال عسير وإنهاء هذا التمرد(الخطيب، المرجع السابق: ٧١).

وظل حريصا على استمرار الرابطة العربية التركية كرابطة دينية معلنا أهمية وجود واستمرار الدولة العثمانية بعد عودته من حملة عسير بقوله:"اعلموا علم اليقين أنه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالأمة الإسلامية لاختطفتكم الدول الأجنبية اختطاف الذئاب للغنم المنفردة"(أبو داهود، المرجع السابق: ٤٧).

إلا أن معارضة الشريف حسين تطبيق قانون الولايات العثماني الصادر في عام ١٩١٣ الذي يقضي بتنفيذ أحكام التجنيد الإجباري وإكمال سكة الحديد من المدينة إلى

جدة، أدى إلى نشوب صراع بينه وبين والي الحجاز وهيب باشا وتهديد الشريف بتعيين الشريف علي حيدر أميرا على مكة(سلطان، ١٩٨٠: ٢٧٥).

ولما أخذت الأحداث تتطور نحو تحالف الدولة العثمانية مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، رفض الشريف مشاركة الدولة العثمانية في المعركة لإيمانه بخسارة الحرب وافتقاد الدولة العثمانية لسيادتها(ابن الحسين عبدالله، المرجع السابق: ٩٨).

بهذا أسهمت العلاقات التي أخذت بالتوتر شريف مكة الحسين بن علي والحكومة التركية في خلق شروطا ذاتية وموضوعية مهدت الطريق لاتصالات وعلاقات متبادلة بين بريطانيا والشريف حسين(Susser,1995: 103).

البداية كانت سنة ١٩١٢ عندما زار الأميرعبد الله المعتمد البريطاني في القاهرة كتشنر، وعرض عليه الوضع في الحجاز وكان أن سأل الأمير كتشنر إذا ما نشب الخلاف بين والد الشريف والأتراك عن مدى وقوف الانجليز إلى جانب والده، فلم يبدي كتشنر تشجيعا لهذا الموقف رغبة من الانجليز بالمحافظة على علاقات طيبة مع العثمانيين. وبتغير الظروف الموضوعية بدخول العثمانيين الحرب إلى جانب ألمانيا، بدأت الاتصالات من خلال وزير الحربية البريطانية كتتشر؛ مدركا ما سبق للأمير سأله عنه في زيارته السابقة يوم كان يشغل المعتمد البريطاني في القاهرة، وبدوره أدرك الشريف حسين رغبة التحالف معه.

وهذا ما أشار له الأمير عبد الله بن الحسين في مذكراته(ابن الحسين عبدالله ، المرجع السابق: ٧٧): أثناء وجودي في زيارة الخديوي أخبرني بوجود اللورد كتشنر ولم أكن راغبا بلقائه، فألح الخديوي وبأن تصرفا كهذا لا يليق، فالتقيته وعرفه بي وعرفني به.. وكان هذا في قصر القبة، وحيث أنا في قصر عابدين وإذا باللورد قادم لزيارتي، استقبلته وأبلغني سلامه لوالدي وشكره على رعاية الحجاج وتقديره للأمن في الحجاز، وخلال الجلسة قال بأنه إذا ما اتخذت الحكومة التركية تغييرات ومن جملتها تغيير شخص الأمير فهل يرضيكم هذا، أجبته أن الأمير بالعرف هو موظف ومن حق السلطان تغييره،

لكن هل لو كان في ذلك غير منفعة للوطن ولو طلب الأمير مساعدتكم فهل تفعلون، فأجاب: إن بيننا وبين تركيا صداقة تقليدية لا تتيح لنا التدخل في شؤونها الداخلية.

إلا أن بريطانيا نظرت بعين الارتياح لمثل هذا الاتصال كمقدمة أولية لاتصالات أخرى إذا ما حلت ظروف مغايرة لما هو قائم. وبدخول الدولة العثمانية الحرب بتحالفها مع ألمانيا ضد دول الحلفاء ومنها بريطانيا، وهنا تغيرت الموازين البريطانية وجاء الظرف الموضوعي الذي دفعها للاتصال والتفاوض مع العرب حيث أن مصلحتها تقتضي استغلال الخلاف القائم بين الدولة العثمانية والحركة العربية مع محاولة تصعيد حدة الخلاف لتجيره بالتالي لإنجاح تفاوضها مع العرب. وهكذا طلب ستورس من كتشنر إحياء المفاوضات مع الأمير عبد الله بالاتصال معه مجددا. وبعث كتشنر إلى الأمير عبد الله مستفسرا منه ما إذا كان هو ووالده سيقفان مع بريطانيا أو ضدها في الحرب(أبو داهود، المرجع السابق: ٦١).

ويتابع الأمير عبد الله في مذكراته(ابن الحسين عبدالله ، المرجع السابق: ١٠٩): وأنا في الطائف وإذا برجل اسمه علي أفندي البزار- مصري بالأصل- يحمل كتابا من ستورس يستوضح فيه إذا ما كنا ما زلنا راغبين باستقلال العرب وأن بريطانيا على استعداد للمساعدة. فلم ابتهج بالرسالة للخطر المحقق الذي كانت تجر عليه لو عرف عنها أو سقطت في يد غير أمينة أو تفوه هو بشيء أو باع نفسه. وأخذت الرسالة لوالدي وطلب مني أن أكتب لهم أننا في الوقت الحاضر على غير استعداد. وبعد شهر عاد برسالة أخرى من ستورس تحمل كتابا من السير مكماهون لنفس الغرض، وكان ردي: الصيف ضيعت اللبن.

رد الشريف على هذه الرسالة لم يكن متجاوبا مع الطلب البريطاني، لكنه قال ضمن رسالته أن تعاليم الدين الذي هو أصل كل عمل تمنعنا من القيام بعمل في الحال ولكن عندما يحين الوقت المناسب وهو غير بعيد فإننا لا نستطيع إلا أن ننفذه. وتواصلت المراسلات بين ستورس والشريف بواسطة الأميرعبد الله قبل الحرب وبعدها في محاولات بريطانية للتحالف مع الشريف في الحرب، تخللها لقاءات الأمير فيصل مع الحركة العربية في دمشق، وانتهت باتخاذ القرار في

اجتماع الطائف الذي اقتصر على الشريف حسين وأبنائه علي وعبد الله وفيصل بالثورة على الأتراك(سعيد، المرجع السابق: ١٢٩).

ولم تتوقف اللقاءات وبإقناع من الخديوي للأمير عبد الله مواصلة ذلك وان يعرض على ستورس:"إذا اضطرنا الاتحاديون إلى الدفاع عن بلادنا فانتم تمنعوهم من ضرب سواحلنا وإنزال العساكر فيها وتفتحون لنا طريق بور سودان للمخابرات والمناقلات مقابل ذلك نسهل لكم التجارة على كل الدول"(أبو داهود، المرجع السابق: ٦٠).

في ٣١ تشرين الثاني ١٩١٤ أبرق اللورد كتشنر وزير الحربية البريطاني يطلب من رونالد ستورس السكرتير الشرقي للمندوب السامي البريطاني في مصر أن يبلغ الرسالة التالية للشريف حسين بن علي: بما أن الترك قد عزموا نهائيا على دخول الحرب إلى جانب ألمانيا وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب، فالحكومة البريطانية تكرر وعدها السابق وتؤيد مركزكم في إمارة مكة مع كل حقوقها وامتيازاتها، وتعد بأن تحمي الحجاز من كل اعتداء خارجي، وأن تقدم لجميع العرب معونتها الفعالة فيما إذا حالفوا بريطانيا وهبوا يطلبون استقلال بلادهم. كما أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تنصيب خليفة عربي على المسلمين.

وهكذا بادر الانجليز للاتصال مع الشريف بعد نشوب الحرب وظهور نوايا الأتراك للدخول فيها إلى جانب ألمانيا وبدوره استمر الشريف حسين في مراسلة الحكومة العثمانية والاتصال بالحركات العربية في الوقت ذاته(الفواز،المرجع السابق: ١١٤).

اتصالات حسين– الحركات العربية

بدأ الشريف اتصالاته مع الجمعيات الوطنية في دمشق المعارضة للوجود العثماني من خلال ابنه الأمير فيصل، عارضا على زعمائها الاتصالات مع الانجليز، وبدورهم وافقه وفوضه زعماء جمعية العربية الفتاة والعهد بالتفاوض مع الانجليز. وهذا ما أشار له الأمير عبد الله في مذكراته(ابن الحسين عبدالله، المرجع السابق: ١١٠)"بعد

ذلك كانت تجري المخابرات مع الأحزاب العربية بالشام بواسطة أخي المرحوم فيصل وترك تعيين زمن الثورة إلى العرب، وتقرر زمن الثورة بعد مضي الصيف والشتاء".

ففي ١٩١٥ أرسل ابنه فيصل إلى السلطان العثماني لمقابلته وتوضيح رؤيته حول دخول الحرب، وفي الوقت نفسه لقاء قيادات الحركة العربية في سوريا وأسفر اللقاء عن قسم فيصل أمامهم بالانضمام لحركتي العهد وجمعية العربية الفتاة والإخلاص لمبادئهم وأهدافهم، وقرروا الاتفاق مع بريطانيا والدخول إلى جانبها في الحرب وتقديم هذا الاتفاق الذي عرف بميثاق دمشق إلى والده الشريف حسين لمفاوضة بريطانيا على أساسه والذي تضمن:

- اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية.
- إلغاء جميع الامتيازات الأجنبية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية.
- عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدول العربية المستقلة.
- تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية. وقد حملت هذه الاتفاقية تفويض الشريف بالتفاوض مع بريطانيا.

وعاد فيصل إلى مكة في ديسمبر ١٩١٥ ليعلم والده بلقاءاته هذه، فاجتمع الشريف وأبناءه علي وعبد الله وفيصل في الطائف واتفقوا على أن يتولوا أمر الثورة وأن يتمموا الاتفاق مع الانجليز(الفواز، المرجع السابق: ١١٢).

بدأت المراسلات بين هنري مكماهون والشريف حسين من ١٤ تموز ١٩١٥ وحتى ١٠ مارس ١٩١٦ مبينا فيها رغبة العرب في الفوز بحريتهم المطلقة ووحدتهم في اقطارهم الطبيعية والطلب من انجلترا أن تعترف بهذه الحرية والوحدة وأن يتعاضد العرب مع انجلترا على تحقيقها بقوة السلاح، ثم لتتوالى المراسلات والردود حول حدود الدولة العربية وطبيعة الدعم البريطاني المالي والعسكري وحشد المقاتلين العرب من قبل الشريف للقتال إلى جانب قوات الحلفاء ضد الدولة العثمانية، ومواجهة الأمراء العرب

الآخرين في حال وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية. ويؤكد الأمير عبد الله في مذكراته(ابن الحسين عبدا لله، المرجع السابق: ١٠٩)على هذه الاتصالات بقوله: "وتتابعت مراسلات مكماهون وأن بريطانيا ترحب بعودة الخلافة الإسلامية إن هي عادت إلى الدوحة الهاشمية مرة أخرى.

وخلال كل ذلك تستمر اتصالات الشريف حسين مع الحركة العربية لإعلان الثورة وتحرير البلاد العربية من السيطرة العثمانية وإقامة الدولة العربية بدعم انجلترا المالي والعسكري واعترافها باستقلال البلاد العربية وبالشريف ملكا وخليفة على العرب، وتفضيل بريطانيا في كل الشؤون ومنها الاقتصادية والبقاء على العهد والثقة كما اتفق سابقا مع ستورز. وكان دخول الدولة العثمانية الحرب في وقت تعاني منه الدولة من عجز وصعوبات مالية في موازنتها، وتناحر حزبي في البرلمان، وتصرفات حزب الاتحاد والترقي التركي الحاكم ضد القوميات الأخرى خاصة العربية، السبب الذي دفع بالشريف إلى رفض ذلك لضعف الاستعداد والإمكانيات حيث لاناقة فيها ولا جمل للدولة العثمانية(سعيد، المرجع السابق: ١٩).

ولما طالبته حكومة الآستانة بالدعوة إلى الجهاد المقدس تعامل مع ذلك بدهاء سياسي وسعة حيلة ورد غامض مضمونه التملص من إصدار هذا الإعلان نظرا لمعارضة دخول الدولة العثمانية حربا خاسرة. وصار امام خيارين؛ ولاءه للدولة العثمانية التي هو جزءا منها بصفته أميرا على مكة معين بموجب الإرادة السلطانية، وأمام رغبته بالانعتاق من هيمنة العثمانيين وصراعه مع والي الحجاز. وبالنتيجة اختار الشريف التفاوض مع الانجليز والوقوف إلى جانبهم حيث كان هذا بالنسبة له الوقت المناسب الذي حان(الخطيب، المرجع السابق: ٩٣).

لكنه في الوقت نفسه استمر بالتفاوض ومشاغلة العثمانيين فرفع في فبراير ١٩١٥ برقية إلى أنور باشا وكيل القائد العام تضمنت: العفو عن المتهمين السياسيين العرب حتى يقف العرب مع تركيا في الحرب وإقامة حكم لامركزي في سوريا وجعل

إمارة مكة وراثية في أولاده. لكن حكومة الأستانة لم توافق الشريف على ذلك وطالبته بضرورة إرسال المقاتلين للحرب حيث الأولوية الآن للحرب وليس لتلك المطالب. ودارت حول ذلك مفاوضات ومماطلة من الشريف بدخول الحرب على جانب الدولة العثمانية. ومن جانب آخر استمر فيصل في لقاءاته ومفاوضاته مع رجالات الحركة العربية لإعلان الثورة.(الفواز،المرجع السابق : ١٣٥، ١٣٧)

جاء إعلان الحرب في أغسطس ١٩١٤ كحادثة كبرى دفعت برجال الحركات العربية التفكير مليا بشان الموقف من الحرب التي دخلتها دولتهم العثمانية، فرأوا أن يؤيدوا دولتهم في حربها ومقاومة كل احتلال أجنبي. وأخذ رجالات الحركة العربية يخطبون في الناس ليكونوا إلى جانب دولتهم العثمانية في هذه الحرب. وقد خطب عبد الكريم في ذلك قائلا:"قبل كل شيء يجب علينا أن نطرد من صفوفنا أولئك المنافقين الذين باعوا وطنهم للعدو ونضيق الخناق على الذين يعملون لمصلحته، وأن وحدة الشعبين العربي والتركي باعتبارهما عمودي الإسلام هي اولويةالاستعمار"(سعيد، المرجع السابق: ٦٥).

وجمعية العهد بدورها اتخذت قرارا جاء فيه:"نتيجة لاشتراك الأتراك في الحرب فقد أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية سعرضا لمخاطر شديدة، لذلك يجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها وقد عقدنا العزم أنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد فإن الجمعية لزمة بالعمل إلى جانب الأتراك من أجل مقاومة التدخل الأجنبي مهما اختلف شكله أو نوعه"(أبو داهود، المرجع السابق: ٧١).

وقطع حزب اللامركزية الذي يطالب باللامركزية الاتصالات مع الانجليز واتخاذ موقف على جانب دولته العثمانية في الحرب(سعيد، المرجع السابق: ١٣٠).

لكن الشريف حسين وبحصوله على الضمانات من بريطانيا بدعم استقلال العرب انتهت به لأن يطلق الرصاصة الأولى في ٩ شعبان ١٣٣٤هـ الموافق في ١٠ حزيران ١٩١٦ بدعم مالي وعسكري من بريطانيا(الخطيب، المرجع السابق: ١٣٤).

وجاءت المفاوضات بين الشريف وبريطانيا عبر مراسلات حسين- مكماهون ملبية مصلحة الطرفين؛ التحرر من الأتراك بالنسبة للعرب، واستغلال هذا الهدف بخلق قوة عربية متناقضة مع الأتراك تخدم مصالح الغرب ومطامحه في المنطقة العربية.

وقد استعرض جمال باشا في مذكراته دور الشريف حسين وتأثيره الحاسم على مسار الحرب بقوله:" لولا اتفاق الانجليز مع الحسين لما عبروا القناة إلى الضفة الثانية ولما تقدموا في فلسطين وسورية لمحاربة الترك الذين اضطروا أن يشطروا قواهم إلى شطرين: شطر كان يحارب الانجليز وشطر كان يحارب العرب. وكان همي في ذلك الوقت فبراير ١٩١٦ أن أعمل لحمل الحسين على إرسال كتيبة إلى فلسطين بقيادة احد أبناءه، ولتحقيق هذه الغاية كاشفت الشريف فيصل وفاوضته ملياً وتبادلنا مع الشريف سلسلة رسائل وافية وفي النهاية أصبحت يوم ٢ يونيو ١٩١٦ أمام ثورة الشريف حسين فكانت ضربة قاضية على حملة القناة. وكان تاريخ آخر خطاب أرسله الشريف إلى الانجليز هو تأكيده على الخروج علينا، حيث لم يبدأ الانجليز تحركاتهم العسكرية في القناة وفلسطين إلا بعد إن استوثقوا من الشريف أن ثورته علينا ستضطرنا على اتخاذ تدابير خاصة في الحجاز وسحب قواتنا من فلسطين، وفضلا على ذلك فقد كانوا واثقين أن البدو الذين أغروهم بالموال الطائلة المرسلة بواسطة الشريف سيثورون ضدنا وان ثورتهم ستضعفنا. أما العرب الآخرين فقد أدوا واجبهم بمنتهى الشجاعة الإخلاص، ولهذا لا يمكنني مطلقا تخفيف الحقد والسخط الذين أشعر بها نحو الشريف لبذره بذور الخلاف في تلك الكتلة التي توحد شعورها(سعيد، المرجع السابق: ١٠٢).

وهكذا لعب القادة المركزيين للدولة العثمانية والقادة المحليين للبلاد العربية دورا شخصيا بحكم مكاناتهم الفكرية والسياسية في خلق المقدمات والشروط الضرورية لقيام الثورة.. لكن الذاتية المبالغ فيها والمراهنة الزائدة على شخوص البريطانيين الرسميين أكثر من المراهنة المؤسسية انتهت بالدولة والثورة؛ فلم تتحقق الوحدة المنشودة ولا الاستقلال الذي بات مرتهنا للقوى الدولية الصاعدة والذي توج بالنفي.

وفي هذا السياق يروي لورنس" فالحكومة البريطانية التي حثت العرب على القتال من أجلنا، كانت مقابل وعود محدودة لإنشاء دولة عربية مستقلة بعد انتهاء الحرب. والعرب يثقون بالأشخاص وليس المؤسسات؛ فهم رأوا في عميلا حرا للحكومة البريطانية وطلبوا مني العمل على تطبيق تلك الوعود المكتوبة وغير المكتوبة، لذلك كان علي أن أنظم للمؤامرة وأن أقوم بإعطاء تأكيدات كلامية، واعتادوا على تصديقي ويظنون أن حكومتي مثلي تماما؛ بأنها مخلصة في وعودها بدلا من أن يكونوا فخورين بما قمنا به سوية، وكان واضحا منذ البداية أنه في حال كسبنا الحرب فإن الوعود ستكون عبارة عن ورقة ميتة(لورنس، ١٩٩٨: ١٣).

الخاتمة

انطلقت الدراسة في موضوع بحثها من طبيعة المقدمات والشروط الذاتية والموضوعية التي أنضجت الثورة على الدولة العثمانية؛ فارتبطت المقدمات الذاتية بطبيعة ونهج طبقة الحكم التركي منذ تسلم حزب الاتحاد والترقي الحكم منطلقا من تنامي الحس القومي بالطورانية والسياسات التي انتهجت سياسة التتريك وإقصاء وتهميش العنصر العربي، كذلك حالة الفساد والترف التي عاشها أعضاء هذه الطبقة وما عكسته من سلبيات على مؤسسات الدولة. وفي المقابل جاءت تلك السياسات ملبية لطموح قيادة الثورة في استقلالية الحكم وبدعم من النخب العربية الفكرية والسياسية لقيام الثورة والتي استثمرت من قبل بريطانيا مغدقة وعود مضللة وكاذبة. وفي موازاة ذلك ظروف ومقدمات موضوعية منها ما ارتبط بواقع دولي تمثل بقوى أوروبية صاعدة لها استراتيجياتها وأطماعها بالتوسع والثروة، ومنها ما ارتبط بحروب الدولة العثمانية وما أفرزته من إنهاك لإمكاناتها وأوضاع الناس الاقتصادية الذين استنزفت ثرواتهم، على تواضعها، الضرائب والمصادرة لتغطية كلفة إدارة الدولة وحروبها.

وقد خلصت الدراسة إلى استنتاجات من أهمها:

- **حلت التوجهات القومية؛ العربية والطورانية محل الرابطة الدينية الإسلامية التي كانت أحد أهم مقومات وجود وقوة الإمبراطورية العثمانية، ما مهد لخلق المقدمة الأيديولوجية الضرورية للتعبئة القومية وضخ الدماء في عروق الثورة.**
- وفي الوقت ذاته انقسم الموقف العربي بين مؤيد للدولة والرابطة الدينية ووعي للمخططات الاستعمارية الأوروبية؛ خاصة عند دخول الدولة الحرب، وبين معارض لها تحت وقع الظلم والبطش التركي والرغبة بالانفصال. ومع ذلك كانت الغلبة للموقف المعارض الذي وجد في الدعم والوعود البريطانية قوته علاوة على إدراك حالة الضعف التي تعانيها الدولة.
- تمكن البريطانيون على العمل من خلال القادة والنخب الفكرية والسياسية العربية التي وجدت في بزوغ الفكرة القومية الأوروبية منارا وهاديا لنشوء فكرة القومية العربية والتخلص من الواقع والسياسات العثمانية المتخلفة على المستوى الاقتصادي والسياسي وبناء سياسات تأخذ البلاد العربية إلى طريق النمو والازدهار والتحرر. كما وتم توظيف البعد القبلي في حشد المحاربين والمتطوعين ضمن قوات الثورة عبر التحالف مع شيوخ القبائل العربية.
- ويبدو أن الرابطة القومية أو (العرقية) أقوى وقعا إذا لم تتوافر شروط اندماج ثقافي(اقتصادي وسياسي واجتماعي) قادر على تلبية احتياجات مواطني الدولة المادية والروحية في صورة عدالة ومساواة بحيث تؤلف عناصر الدولة؛ الإقليم والشعب والسيادة وحدة واحدة تمثلها حكومة تنتسب إلى كل تلك المكونات من أعلى قمة هرمها إلى أدناها، وإلا تصبح الدولة بمثابة ملكية خاصة لطبقة الحكم التي تستبعد بل وتستعبد البشر المكونين للدولة الأمر الذي يوفر شروط الثورة والتحرر من كل الأعباء المفروضة عليها.
- تبين أن الثورة قد دخلت معترك السياسة والمراهنة عبر ممثليها القادة المحليين في ظل ضغط أجواء الحرب ومراهنة القوى الدولية الفاعلة على استغلال

المشاعر القومية ورغبتها بالتحرر من النير التركي ما أفقدها فيما بعد عناصر قوتها العسكرية التي حيرت بالكامل لصلح انتصار الحلفاء وتملص بريطانيا فيما بعد من وعودها. ما جعل المقدمات الذاتية المتمثلة في النوايا والرغبات أكثر تأثيرا على مسار الثورة.

obeikandl.com

المراجع العربية

١. أبو داهود، يوسف، ١٩٩٢، الثورة والنفي: قراءة في فكر الشريف حسين بن علي، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، عمان- الأردن.

٢. أبو دية، سعد، ١٩٩٠، الثورة العربية الكبرى: الجانب الفكري، عمان- الأردن.

٣. وأنطونيوس، جورج، ١٩٨٠، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد واحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت.

٤. الحسين، عبد الله، ١٩٨٩، مذكراتي، الأهلية للنشر، عمان.

٥. الخطيب، جبر، ٢٠٠٧، العروبة والإسلام في خطاب الحسين بن علي، وزارة الثقافة، عمان الأردن.

٦. دروزة، محمد عزة، ١٩٧١، حول الحركة العربية الحديثة، المكتبة العصرية، صيدا.

٧. الريماوي، سهيلة، ١٩٨٤، صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨- ١٩١٨، مجلة دراسات تاريخية، العدد ١٥- ١٦.

٨. سعيد، أمين، الثورة العربية: تاريخ مفصل في نصف قرن،المجلدالاول:النضال بين العرب والأتراك،مكتبة مدبولي،القاهرة

٩. سلطان، علي، ١٩٨٠، تاريخ العرب الحديث، طرابلس.

١٠. شلبي، أحمد، ١٩٦٧، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٥، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر.

١١. الشوابكة، أحمد فهد، ١٩٨٩، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية، عمان- الأردن.

١٢. الصايغ، أنيس، ١٩٦٦، الهاشميون وقضية فلسطين، منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية، صيدا/ بيروت- لبنان.

١٣. طحان، محمد جمال، ١٩٩٨، الاستبداد والمستبد في المجتمع في فكر الكواكبي، مجلة الفكر العربي، العدد ٩١.

١٤. طلاس، مصطفى، ١٩٧٨، الثورة العربية الكبرى، مجلة الفكر العسكري، دمشق- سوريا.

١٥. ظاهر، مسعود، ١٩٩٠، الحركة الفكرية في مدينة بيروت قبل الحرب العالمية الأولى، المجلة التاريخية المغاربية، العدد ٥٧- ٥٨.

١٦. عضو جمعية سرية عربية، ١٩٩١، ثورة العرب الكبرى ١٩١٦، وزارة الثقافة، عمان- الأردن.

١٧. عمارة، محمد، ١٩٨١، فجر اليقظة العربية، دار الوحدة، بيروت.

١٨. عوض، محمد عبد العزيز، ١٩٨٣، الاتجاهات السياسية في بلاد الشام ١٨٧٦- ١٩١٤، اربد- الأردن.

١٩. الفواز، كليب،١٩٩٧، المراسلات المتبادله بين الشريف حسين والعثمانيين١٩٠٨- ١٩١٨:دراسة تحليلية،المكتبة الوطنية ،عمان.

٢٠. قدري، أحمد، ١٩٥٦، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق- سوريا.

٢١. قدوره، زاهية، ١٩٨٤، بحوث عربية وإسلامية: مفكران لبنانيان وقضية فلسطين/ نجيب عازوري وميشال شيما، بيروت- لبنان.

٢٢. قلعجي، قدري ١٩٩٤،.الثورة العربية الكبرى١٩١٦-١٩٢٥،شركة المطبوعات للنشر والتوزيع،ط٢،بيروت

٢٣. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو.

٢٤. لورنس، توماس ادوارد، ١٩٩٨، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة: محمد النجار، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.

المواقع الإلكترونية

25. www.ar.wikipedia.org وكيبيديا/ الموسوعة الحرة.

26. **www. islammemo.cc** مفكرة الإسلام. /

المراجع الأجنبية

27. Haidar, Princess Musbah, 1944, Arapesque, Second Impession, Hutchinson Publishers, London..

28. Hourani, , 2002, Albert Habib & Malise Ruthven, A history of Arab People, 2ed, Harvard University Press.

29. Ochsenwald, William, 1985, Religion, Society and State in Arabia the Hijaz under Ottman Control 1849- 1908, Ohio University Press Columbus.

30. Susser, 1995, Asher & Aryeh Shamuelevitz, The Hashemites in the Modern Arab World: Essays in Honour of Late Professor Uriel Dann., Routledge.

31. Watenbaugh, 2006, Keith David, Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism, and Arab Middle Class, Princeton University Press.